بين يدي السورة :

والسورة مَكِّيَّة بالاتفاق ، واشتملت على الوعيد بالهلاك ودخول النار لسادة قريش وأغنيائها الذين كانوا يعيبون النبي وصحبه الكرام ويستهزئون بهم .

سبب النزول السورة :

روي أنها نزلت في جماعة من سادة قريش كانوا يعقدون المجالس ليطعنوا ويعيبوا ويسخروا بالقول والإشارة من المسلمين وسُمي من هؤلاء المشركين: الوليدُ بن المغيرة ، وأميةُ بن خلف، وأبيّ بن خلف، والعاص بنُ وائل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

اللغويات :

﴿وَيْلٌ﴾ الوَيْلُ : كلمة للدُّعاء بالهلاك والعذاب ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهُمَزَة : مَنْ يَغْتَاب الناسَ ويَطْعَن في أَعْراضِهم وشَرَفِهم ويمشي بين الناس بالنَّميمة ﴿لُمَزَةٍ﴾ اللُّمَزَة : من يَعِيب الناسَ في وجوههم ، من يسخر من النَّاس بالحَاجِب والعَيْن والإشارة ﴿عَدَّدَهُ﴾ عَدَّدَ الشيءَ : أحْصَاه ، جَعَله ذا عَدَد ، عدَّد المالَ : جعله عدَّة للدهر ﴿يَحْسَبُ﴾ : يَظُن ﴿أَخْلَدَهُ﴾ أَخْلَدَ فلانٌ : أَسَنَّ ولم يَشِب ، وأَخْلَدَ الشيءَ : أَبْقَاه وأَدامَهُ ﴿ كَلَّا﴾ : حرف يفيد الرَّدْع والزَّجْر والاستنكار ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ نَبَذَ الشَّيءَ : طَرَحَهُ وأَلْقَاه ورَمَاه ﴿الْحُطَمَةِ﴾ النَّار الشديدة ، اسم من أسماء جهنَّم لأنّها تَحْطِم ما

يُرمى فيها ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ أَوْقَدَ النارَ : أَشْعَلَها ﴿تَطَّلِعُ﴾ اطَّلَعَ : نَظَر ، اطَّلَعَ عَلَى الأمر: عَلِمَهُ . واطَّلَعَ على الشيء : أشرف عليه ﴿الأَفْئِدَةِ﴾ جمع فُؤَادُ وهو القَلْبُ ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ أوصدَ البابَ أطبقه وأغلقه ﴿عَمَدٍ﴾ عَمَدَ الشيءَ عَمْدًا : أقامه بعِمادٍ ودَعَمَهُ ﴿عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أعمدةٍ ممدودةٍ على أبْوابها .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ إن من تَعَوَّد أن يعيب الناس ويطعن في أعراضهم بالقول أو بالإشارة له عذاب شديد ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ ومن الصفات الذميمة لهذا الطَّعان العيَّاب حبَّ المال وجَمْعَه بكل طريقة ومن كل طريق والإكثار منه واعتباره عُدَّتَه في الدنيا ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يظن أن ماله سيبقيه حيّاً أبد الدهر ويدفع عنه ما يكره ويحقق له ما يتمنى ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ليرتدع الهُمَزَة اللُّمَزَة عن هذا الظنِّ الكاذب فلن يخلِّده ماله إنما سوف يموت حتماً ويلقى به في نار شديدة تحرق جلده وتحطِّم عظامه ولن يغني عنه ماله شيئاً ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ وأنت لا تعلم حقيقة هذه الحُطَمَة وسأخبرك بحقيقتها ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ إن الحطمة نار الله المشتعلة دائماً التي لا طاقة لأحد بتحمل حرارتها ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ تلك النار التي تعلم ما في القلوب من اعتقاد سقيم وعمل فاسد فتحرق بمقدار ما أجرم أصحابها ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ إنها عليهم مغلَّقة الأبواب، وهم موثقون فيها مشدودون إلى عُمُدٍ ممدودة . فلا حركة لهم فيها ولا خلاص لهم منها.

فوائد وعظات :

* ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ ما علاقة جمع المال بالهمزة اللمزة ؟ إن الهمزة اللمزة هذا إما أن وسيلته لجمع المال كانت الطعن في أعراض الناس والاستهزاء بمهم بالقول أو الإشارة أو أن دافعه للطعن في الناس والسخرية منهم كان كثرة ماله واتساع ملكه .

* ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ إن حبَّ المال حبّاً جمّاً والانشغال بجمعه والزهد فيما عند الله يطيل أمل صاحبه في الدنيا ويلهيه عن ذكر الآخرة فيطغى ويعمل عمل من لا يظن الموت ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾[العلق:٦،٧]

* ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ لماذا خُصَّت الأفئدة التي هي القلوب بالذكر دون سائر الأعضاء باطلاع النار عليها ؟ لقد خلق الله تعالى القــلب أميراً وجعل له سائر

الأعضـــاء له رعيَّة يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد ، وإذا فسد فسد سائر الجسد .

" إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

ولمَّا كانت أفئدة الهُمَزَة اللُّمَزَة محل عقائدهم الزائفة ، ونيَّاتهم الخبيثة ، ومنشأ أعمالهم السيئة استحقَّت إطلاع النار عليها وإحاطتها بها .

لقد سبق الإسلام علماء الغرب إلى الحديث عن دور القلب وأهميته في صلاح النفس ، بل إنه جعل للقلب دوراً مركزيّاً فإذا صلح هذا القلب فإن جميع أجهزة الجسد ستصلح، وإذا فسد فسوف تفسد جميع أنظمة الجسم، وهذا ما نراه اليوم وبخاصة في عمليات القلب الصناعي، حيث نرى أن جميع أنظمة الجسم تضطرب باستبدال قلب بقلب .

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ جاءت الكلمتان على وزن فُعَلَة للدلالة على أن تلك الصفات القبيحة لم تكن صفات عارضة في أصحابها إنما عادة متأصلة فيهم ، لأن اللفظ الذي بزنة فُعَلَة يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به اعتاد الإتيان بهذا الوصف ، وبين الكلمتين ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ جناس ناقص يعطي جرساً موسيقيّاً .

* ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ جاءت كلمة مال نكرة لبيان كثرة المال كثرة لا تعد.

* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ استفهام لتهويل أمر هذه النار ، وتفظيع شأنها ، وبيان أن كنهها لا تدركه عقول البشر .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿عَدَّدَهُ .. أَخْلَدَهُ .. ٱلْمُوقَدَةُ .. مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

سورة مكية ، وفيها تسرية عن رسول الله ﷺ عما يلاقيه من إيذاء كفار قريش ، وتذكير قريش بنعمة الله عليهم بصد من جاء يهدم الكعبة ليؤمنوا بالله إذ جاءهم الهدى ويكفوا عن تكذيب رسول الله وإيذائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

اللغويات :

﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الذين أتوا لهدم الكعبة بالأفيال وهم أبرهة الأشرم وجيشه ﴿كَيْدَهُمْ﴾ الكيد : إرادة مَضَرَّة الغير خفية ، وهو من الخَلْق الحيلة السيئة ، ومن الله التدبير بالحق ﴿تَضْلِيلٍ﴾ : تضييع وإبطال ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ : جماعات من الطيور يتبع بعضها بعضاً ﴿سِجِّيلٍ﴾ السجِّيل : الطِّين اليابس المتحجِّر ، والدِّيوان الذي كُتب فيه عذاب الكفار ، وواد في جهنم ﴿كَعَصْفٍ﴾ العَصْف : ورق الزرع الجاف الذي تعصفه الرياح فتأكله الحيوانات ، أو هو التِّبن الذي تأكله الدواب .

المعنى الإجمالي للآيات :

يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ قائلاً لقد علمتَ ، يا محمد ، يقيناً ما فعله ربك بأصحاب الفيل الذين جاءوا لهدم الكعبة فقد رد كيدهم إلى نحورهم وأرسل عليهم جماعات من الطيور المتتابعة تقذفهم بحجارة قاتلة فهلكوا ومُزِقَت أجسامهم كأوراق الزرع التي أكلتها الحيوانات وطحنتها .

obeikandi.com

فوائد وعظات :

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمعنى عام ولقريش خاصة يذكرهم الله تعالى بأن الذي صان الكعبة من أبرهة وجيشه هو وحده وليست قريش ، ولم يفعل الله تعالى هذا لخيرية قريش ، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي سيشرفه الله تعالى ببعثة النبي محمد خاتم المرسلين الذي ولد في قريش في هذا العام .

ولقد كان من مقتضى هذا أن تبادر قريش إلى الإيمان بهذا الرسول الذي يعرفون نسبه فيهم ويعرفون صدقه وأمانته ويعرفون القرآن الكريم معجزته الكبرى التي أيَّده الله بها لا أن يكونوا أول الكافرين به والمكذبين لدينه .

من لطائف النظم القرآني :

* الاستفهام في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ لتقرير ما تواتر نقله من قصة أصحاب الفيل فكان العلم الحاصل به مساوياً في الجلاء للرؤية البصرية .

* في التعبير بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ إشارة إلى أن هذا الفعل لا يقدر عليه أحد سواه سبحانه ، وهو الكفيل بنصر النبي ﷺ على أعدائه كما نَصَر قريشاً على أصحاب الفيل .

* الاستفهام في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ للتقرير أيضاً أي : لقد أبطل الله تعالى مكر أصحاب الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة .

* ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ تشبيه هلاك أصحاب الفيل بورق الزرع الذي تأكله الحيوانات لبيان تمام الفناء والهلاك .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿ٱلْفِيلِ .. تَضْلِيلٍ .. سِجِّيلٍ .. أَبَابِيلَ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

السورة مَكِّيَّة ، وفيها يذكِّر الله تعالى أهل مكة ببعض نعمه عليهم لحثهم على الإيمان به تعالى الذي جمعهم بعد فرقة وهيَّأ لهم سبل العيش الكريم وحقق لهم الأمن المقيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

اللغويات :

﴿إِيلافِ﴾ عهد وأُلْفَة وائتلاف ﴿ قُرَيْشٍ﴾ هم أهل مكة الذين ولد فيهم النبي ﷺ ﴿الْبَيْتِ﴾ : الكعبة المكرمة .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ يذكِّر الله تعالى أهل مكة ببعض نعمه عليهم : لقد كانت مكة وادياً قَفْراً بلا ماء ولا زرع ولا سكن ففجر الله تعالى فيه الماء وأنبت الزرع وحبَّب إلى الناس السكن فيه وألَّف بينهم وهيَّأ لهم رحلتين تجاريتين آمنتين إلى اليمن شتاء والشام صيفاً كل عام ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فعلى أهل مكة أن يؤمنوا بالله تعالى شكراً على جزيل نعمه عليه فقد جعلهم أهل بيته الحرام الذي تحج قبائل العرب إليه كل عام مما رفع ذكرهم فصاروا سادة العرب ، ووسع رزقهم فأتاهم الخير من شتى البقاع ، وأمَّن بلادهم في حين تتخطَّف الناس من حولهم ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]

obeikandl.com

فوائد وعظات :

* لماذا خصَّ الله تعالى قريشاً بسورة كاملة لم يذكر فيها أحد سواهم ؟ وهذا السؤال يقودنا إلى أسئلة أخرى مهمة: لماذا بعث الله آخر أنبيائه من العرب عموماً؟ ومن قريش خصوصاً ؟ ومن بني هاشم تحديداً ؟

بدايةً الله تعالى ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣] .

لكن نحن نحاول أن نبحث عن الحكمة من وراء هذه الاختيارات ؛ لأن محمدﷺ لم يكن زعيماً صنعته الظروف والأحداث إنما كان اصطفاء من رب العالمين ليس له وحده إنما لقومه كذلك .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ " [أخرجه مسلم]

لقد اصطفى الله تعالى العرب ليبعث فيهم خاتم المرسلين لما يمتازون به من عِزَّة نفس ، وشدة بأس ، وقوة أبدان في الوقت الذي كانت الأمم الأخرى مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف ، ومرءوسين أضعفهم البؤس وضيق العيش ، وسادة أطغاهم بغيُ الاستبداد ، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد .

كانت العرب تمتاز بكثير من الفضائل الموروثة والكسبية . كقِرَى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ، والنجدة والإباء ، وعلو الهمة والسخاء والرحمة والإيثار وحماية اللاجئ وحرمة الجار . أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية والأنين من ثقل الضرائب والأتاوى الأميرية ، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عمَّ الراعي والرعيَّة .

كانت العرب قد بلغت أَوْج الكمال ، في فصاحة اللسان وبلاغة المقال ، وكادت تتحد لهجات قبائلها بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية ، والأسواق الأدبية ، فاستعدت بذلك للوحدة القوميَّة .

فتلك أمهات مزايا الأمة العربيَّة ، التي أعدَّها الله تعالى بها للبعثة المحمديَّة ، والسيادة الدينية والمدنية .

أما اصطفاء الله كنانة الشيخ الجليل ، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل ، فيفسره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله ، وحجِّهم إليه لعلمه وفضله .

وأما اصطفاء الله تعالى قريشاً فلأنهم أصرح ولد إسماعيل أنسابًا ، وأشرفهم أحسابًا وأعلاهم آدابًا ، وأفصحهم ألسنة ، وهم الممهدون لجمع الكلمة . وكانت العرب تقدِّم قريشاً وتعظِّمهم وكانت دارهم موسماً ولهم السدانة والسقاية والرفادة يسقون الحجيج ويطعمونهم فحازوا به الشرف والرياسة عليهم و" النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ (أي في الإِمَارَة) مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ. " كما جاء في الصحيحين .

وأما اصطفاء الله تعالى بني هاشم ، لما امتازوا به من الفضائل والمكارم وكان جدهم هاشم صاحب إيلاف قريش ، الذي أخذ لهم العهود برحلتي الشتاء والصيف من حكومتي اليمن العربية والشام الرومية ، فاتسعت بهما معيشة قريش ، وأمنوا في تجارتهم من كل خوف .

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه الأخلاق العلية ، والفضائل النفسية، فقد كانوا أبعد من سائر قريش عن الكِبْر والأَثَرَة والأمور الحربية . ([1])

من لطائف النظم القرآني :

* اللام في قوله تعالى : ﴿لإِيلاف﴾ تحتمل وجوهاً ثلاثة : فهي إما متعلقة بسورة الفيل التي قبلها وبهذا يكون المعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم ويبقى تعظيم العرب إياهم أهلكنا من أراد هدم الكعبة ، وإما أن اللام متعلقة بـــ ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وعلى هذا يكون المعنى من أجل إيلاف قريش أنعمنا عليها برحلتي الشتاء والصيف اللتان يعودان عليها بالخير الوفير ، وإما أن تتعلق اللام بـــ ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ فالله تعالى يأمر قريشاً أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين .

* التكرار في قوله تعالى :﴿لإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ إِيلَـٰفِهِمْ﴾ أولاً قوله تعالى: ﴿لإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ عامٌ يجمع كل مؤانسة وموافقة كانت بينهم، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم، ثم خصَّ الله تعالى إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم .

([1]) لمزيد من التفصيل حول اصطفاء الله كنانة وقريشاً وبني هاشم راجع رشيد رضا مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

obeikandi.com

* لماذا دخلت الفاء في قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ على الفعل مع أن الفعل ليس جواباً لشرط ؟

وذلك لما في الكلام من معنى الشرط ، فكأنه قيل : إن لم تعبد قريشاً الله تعالى لسائر نعمه عليها فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين التي هي نعمة ظاهرة .

***

obeikandl.com

بين يدي السورة :

اختلف المفسرون حول سورة الماعون مَكِّيَّة أم مَدَنِيَّة ؟ على ثلاثة أقوال : أولها : إنها مَكِّيَّة نزلت للرد على كفار مكة الذين كذَّبوا بدين الإسلام وهذا رأي كثير من المفسرين ، والثاني : أنها مَدَنِيَّة نزلت في المنافقين ، روي عن ابن عباس وقتادة ، وثالث : مَكِّيَّة مَدَنِيَّة نزلت الآيات الثلاثة الأولى منها في مكة ، وبقية السورة نزلت في المدينة روي عن ابن عباس أيضاً .

والذي أوقع المفسرين في الاختلاف حول نزولها أن السورة تتحدث عن المكذِّبين بالدين الذين كانوا الأكثر عدداً وظهوراً في مكة ، وعن المنافقين وهؤلاء لم يظهروا إلا في المدينة ، والذي نُرَجِّحُه أن السورة مَدَنِيَّة ؛ لأنها تتحدث عن المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان وأداء الصلاة ، ولكن الله تعالى قد فضحهم بذكر صفاتهم الذميمة وهي التكذيب بالدين الذي من مظاهره : القسوة على اليتيم ، وعدم إطعام الفقراء الجائعين وحث غيرهم على ذلك ، والسهو في الصلاة ، ومراءاة الناس ، ومنع المعونة والزكاة عنهم .

والمنافقون وحدهم هم الذين يجمعون بين التكذيب بالدين والتظاهر بالتديُّن ، وبين سوء الخُلُق والتظاهر بالصلاح ، وبين رياء الناس والتظاهر بالإخلاص لله ، وهذا ما ذكرته عنهم السورة ، أما الكافرون فمجاهرون فلا يتظاهرون بالتدين ، ولا يراءون الناس في العبادة ، ومع كفرهم فلا يعدم بعضهم أن يتصف ببعض الصفات الحميدة وقد كان غالبية كفار مكة مشهورين بالكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وخدمة الحجيج ، أما المنافقون فيجمعون بين : فساد الدين وفساد الخلق ، بين قسوة القلب وخبث النفس .

يقول صاحب الظلال : " السورة كلها وحدة متماسكة، ذات اتجاه واحد، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة، مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مَدَنِيَّة كلها، إذ إن الموضوع الذي تعالجه هو من موضوعات القرآن المَدَنِي ــ وهو في جملته يَمُتُّ

obeikandl.com

إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفاً في الجماعة المسلمة في مكة. ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مَكِّيَّة مَدَنِيَّة لا يمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع .[1]

سبب نزول السورة :

اختلف المفسرون فيمن نزلت على ستة أقوال . أحدها: نزلت في رجل من المنافقين، قاله ابن عباس . والثاني: نزلت في عمرو بن عائذ، قاله الضحاك . والثالث: في الوليد بن المغيرة، قاله السدي. والرابع: في العاص بن وائل، قاله ابن السائب . والخامس: في أبي سفيان بن حرب، قاله ابن جريج . والسادس: في أبي جهل، حكاه الماوردي .[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧

اللغويات :

﴿رَأَيْتَ﴾ : أَبْصَرْتَ ، أَوْعَلِمْتَ ﴿يُكَذِّبُ﴾ : يُنْكِر ﴿يَدُعُّ﴾ : يَدْفَع بِعُنْف ، يَنْهَر ﴿الْيَتِيمَ﴾ : الصَّغِيرُ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ وَلَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الرُّشْد ﴿لا يَحُضُّ﴾ : حَضَّ عَلَى الأَمْرِ حَضًّا حَثَّ عَلَيْه بِقُوَّة ﴿فَوَيْلٌ﴾: الوَيْل حُلُولُ الشَّر ، وَكَلِمَة عَذَاب ﴿سَاهُونَ﴾ : سَهَا فِي الصَّلاة نَسِيَ شَيْئًا مِنْهَا ، وَسَهَا عَنْهَا تَرَكَهَا ﴿يُرَاءُونَ﴾ : رَاءَى مُرَاءَاةً وَرِءَاءً وَرِيَاءً أَرَى غَيْرَهُ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ عَلَى خِلاف مَا هُوَ عَلَيْهِ ﴿الْمَاعُونَ﴾ : اسْمٌ جَامِعٌ لِمَنَافِعِ الْبَيْتِ كَالْقِدْرِ وَالْفَأْس وَالْقَصْعَة وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِإِعَارَتِهِ ، وَالْمَاء ، وَالْمَعْرُوف ، وَالزَّكَاة .

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن " ج ٨ ص ١١٠ .
(٢) تفسير ابن الجوزي .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يتعجب الله تعالى من حال المنافق الذي عرف الدين الحق وأنكره فلم يؤمن بالله تعالى إذ جاءه الهدي وذلك لأنه قاسي القلب خبيث النفس ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ ومن صفات هذا المنافق الذميمة أنه يقسو على اليتيم ويدفعه بعنف بدلاً من أن يرحمه ويضمُّه إليه ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ والمنافق المكذِّب بالدين لا يطعم الفقراء الجائعين بل ينهى القادرين عن إطعامهم ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يتوعَّد الله تعالى بالعذاب هذا المنافق وأمثاله الذين يتظاهرون بأداء الصلاة ويلهون فيها ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ هؤلاء المنافقون يرجون بعبادتهم وأعمالهم وجه الناس ولا يخلصونها لله تعالى فيتظاهرون بالخير والصلاح وهم في الحقيقة لا يخشون الله ولا يساعدون عباده ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ومن مظاهر نفاقهم أنهم يمنعون عن عباد الله المحتاجين الخير والبر والمعروف والزكاة " فلا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ، ويستعان به " (١) فاستحقوا عذاب الله الذي أعدَّه لهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]

فوائد وعظات :

* إن أهم صفات المنافقين التي ذكرها الله تعالى : تكاسلهم عن الصلاة وقلَّة ذكرهم لله ومراءاتهم الناس فاحذر أخي المسلم هذه الصفات حتى لا تكون منهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا﴾ [النساء: ١٤٢]

وذكر النبي ﷺ أهم صفات المنافقين فقال : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " [متفق عَلَيْهِ] كما عرَّف لنا النبي ﷺ صلاة المنافق فقال : " تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَىْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا ، لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً "

[رواه مسلم]

إن المنافقين يصلون، ولكنهم لا يقيمون الصلاة يؤدون حركات الصلاة، وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تخشع ، وعقولهم لا تتدبر لأنهم يراءون بها الناس ولا

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٩٥

يتقربون بها إلى الله تعالى ؛ لذا لا تثمر الصلاة فيهم حسن خلق ولا تدفعهم إلى حسن عمل ولا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي ؛ فاستحقوا وعيد الله لهم بالهلاك والعذاب وسوء المصير .

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الاستفهام للتشويق إلى معرفته ، وفيه تعجب من أمره .

* ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الفعل رأي إما أن يكون بمعنى أَبْصَرَ وفي هذه الحالة يتعدى لمفعول واحد ، مثل : رأي الرجلُ الشجرةَ ، أو يكون بمعنى عَلِمَ فينصب مفعولين ، مثل : رأى المؤمنُ الحقَّ واضحاً ، والرؤية في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يحتمل أن تكون بصريَّة ، فتنصب الاسم الموصول {الذي} ويكون المعنى أأبصرت أسوأ وأعجب من هذا المكذب بالدين ، ويحتمل أن تكون علميَّة ، فتنصب مفعولين ، أولهما : الاسم الموصول ، والثاني : محذوف ، والتقدير : أعرفت الذي يكذب بالدين من هو؟ إننا نحن الذين نعرفك صفاته ، وهى : ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ .

* قال تعالى ﴿عَنْ صَلاتِهِمْ﴾ ولم يقل في صلاتهم لبيان أن المستحقين للويل هم أولئك المنافقون الساهون عن الصلاة ، وهي عماد الدين ، سهو ترك لها، وعدم إخلاص فيها ، وليس المسلمون المحافظون عليها المخلصون فيها الذين يسهون في صلاتهم ، أحياناً ، سهو وسوسة شيطان، أو حديث نفس وهذا مما عفا الله عنه ولقد وقع السهو من رسول الله ﷺ .

* بين الكلمتين : يَمْنَعُونَ ، الْمَاعُونَ جناس ناقص يعطي جرساً موسيقيّاً .

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿سَاهُونَ .. يُرَاءُونَ .. الْمَاعُونَ ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

بين يدي السورة :

السورة مَكِّيَّة عند أكثر المفسرين ، وعند الحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة: أنها مَدَنِيَّة ، ويشهد لهم ما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ " . فَقَرَأَ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ "

وأنس بن مالك وهبته أمه أم سليم ، وهو ابن عشر سنوات ، لخدمة رسول الله بعد الهجرة ولفظ "آنفًا" معناه : الماضي القريب وعليه فإن السورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا وهذا يدل على مدنيتها . وقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يؤكد مَدَنِيَّتها فصلاة عيد الأضحى والنحر لم يشرعا إلا في المدينة . ويؤكد هذا ما رواه الطبري عن سعيد بن جبير في تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أمر بأن يصلي ﷺ وينحر هديه وينصرف من الحديبية .

والذين قالوا إن السورة مَكِّيَّة استدلُّوا بما روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة من أنها نزلت في العاص بن وائل. وكان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه ، فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره .

وعليه فإن مقتضى ما يروى في تفسير ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أن تكون السورة مَكِّيَّة، ومقتضى تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ والحديث الذي رواه أنس ابن مالك أن تكون مَدَنِيَّة وأنها نزلت في الحديبية ولم تنزل ردًّا على كلام العاصي بن وائل .

والأظهر أن هذه السورة مَدَنِيَّة . (١)

والسورة أقصر سور القرآن الكريم ، وهي خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى، وسورة الشرح . يُسَرِّي الله تعالى فيها عن رسوله ، ويبشره بالخير

(١) عبد الرحمن بن محمد القماش " كتاب الحاوي في تفسير القرآن الكريم " .

العميم، ويَعِدْه بانقطاع ذكر كارهوه وأعداء دعوته ، ويأمره بالصلاة والإحسان إلى الفقراء شكراً لله على جزيل نعمه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣

اللغويات :

﴿الْكَوْثَرَ﴾ : الخير العظيم ، نهر في الجنة ﴿وَانْحَرْ﴾ : اذْبَحْ ، وعيدُ النَّحْر: عيدُ الأضحى ﴿شَانِئَكَ﴾ : الشَّانئ : شديد البُغْض والكُرْه ﴿الأَبْتَرُ﴾ من الناس : من لا وَلَدَ له ، والأبتَر مَن لا خيرَ فيه ، والأبتَر الحقير الذليل .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يُبشِّر الله تعالى رسوله بالخير الكثير برفع ذكره ونشر دعوته في الدنيا ، وبنهر وحوض في الجنة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يأمر الله تعالى رسوله بأن يقابل نعمه تعالى عليه بالصلاة والدعاء والبذل والعطاء وذبح الأضاحي لإطعام الفقراء .﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ يؤكد الله تعالى لنبيه أن مصير من يكرهه ويعادي دينه انقطاع ذكره الحسن وزال اعتقاده الباطل فلا يذكر اسمه إلا مشفوعاً باللعن ولا يبقى لاعتقاده أثر .

فوائد وعظات :

* ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ اختلف المفسرون في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ على بضعة عشر قولاً : وأصح هذه الأقوال أنه نهر في الجنة والحوض المورود لثبوت ذلك عن النبي ﷺ . قَالَ ﷺ : " أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ " فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ! قَالَ: " فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي؟! فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ؟ " [رواه مسلم]

إن الذين اتبعوا ما أوحي إلى الرسول من ربه وساروا على هديه يسقيهم النبي ﷺ بيده الشريفة شربة لا يظمئون بعدها أبداً أما الذين يتهالكون على المعاصي والآثام

وينتهكون حرمات الله ظانين أن مجرد انتسابهم لأمة محمد ﷺ يوجب لهم شفاعته والشرب من حوضه فإن رسول الله أنهم عندما يعلم أنهم حادوا عن هديه واتبعوا غير سبيل المؤمنين يتبرأ منهم ويردهم عن حوضه .

" أَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي " [صحيح مسلم]

* ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ خصّ تعالى هاتين العبادتين بالذكر ؛ لأنهما أشرف وأفضل العبادات، فالصلاة عماد الدِّين، ومفتاح الجنَّة، وخير الأعمال، وأوَّل ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة ، ونحر الإبل التي هي خير المال ،عند العرب، لله تعالى وكذا سائر الأضاحي من أفضل العبادات المالية التي يتقرب العبد بها إليه تعالى ؛ ففيها إطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، والتهادي والتحاب ، وتزكية النفوس، وطهارة القلوب .

فعن عبْد الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : " تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ " [متفق عليه]

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ افتتح الله تعالى السورة بحرف التأكيد " إنَّ " للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المُعْطَى شيء عظيم .

* جاءت كلمة ﴿الْكَوْثَرَ﴾ على وزن فَوْعَلٌ وهي إحدى صيغ المبالغة ، ولم يحدد جلَّ وعلا معناها لتشمل كل عطاء الله لنبيه ومنه : النهر ، والحوض ، والنبوة ، والحكمة ، والقرآن ، وسائر المعجزات ، والخُلُق العظيم ، ورفع الذِّكر ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوحات ، وإظهار الإسلام على الأديان ، وكثرة الأتباع والأصحاب ، والمقام المحمود وهو الشفاعة العظمى يوم القيامة . (١)

* جاء الفعل ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ في صيغة الماضي وإسناده إلى الضمير " نا " الذي يعود على الله جلَّ وعلا لتأكيد تحقق وقوع ما وُعِدَ النبي ﷺ به .

(١) الشيخ حسنين مخلوف " صفوة البيان لمعاني القرآن " ص ٨٢٧ .

* المطابقة بين ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ و ﴿ٱلأَبْتَرُ﴾ فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير ؛ لبيان عطاء الله الكثير لنبيه ، وعقاب الله الشديد لكارهيه .

* توافق فواصل السورة مراعاة لرءوس الآيات ﴿الْكَوْثَرَ .. وَانْحَرْ .. الأَبْتَرُ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

obeikandl.com

بين يدي السورة :

سورة الكافرون مَكيَّة ولقد نزلت للفصل بين المؤمنين المتمسكين بالتوحيد الخالص والكافرين الراغبين في إفساده الطامعين في رِدَّة المؤمنين بعد أن هداهم الله تعالى للإيمان .

سبب النزول السورة :

عن ابن عباس " أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا : هذا لك يا محمد وكُفَّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإنَّا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة [الطبراني في معجمه الصغير]

فضل السورة :

عن فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله علمني شيئا أقوله إذا أويت إلى فراشي فقال : " اقرأ قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك " [رواه الترمذي وصححه الألباني]

وقال رسول الله ﷺ : "﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل رُبْع القرآن" [حسنه الألباني]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

اللغويات :

﴿الْكَافِرُونَ﴾ كَفَرَ الرَّجُلُ كُفْرًا وكُفْرَانًا : لم يؤمن بالوحدانيّة أو النبوَّة أو الشريعة، أو بثلاثتها ﴿تَعْبُدُونَ﴾ العِبَادَةُ : الخضوع للإله على وجْه التعظيم ﴿دِينِ﴾ معنى الدين في اللغة : المُلْك والسُّلْطان، الذل والخضوع، والعادة والخُلُق ، والجزاء ، ومعناه في الشرع : اسمٌ لجميع ما يُعبد به الله .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُبَلِّغ من عَرَضَ عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، وهم : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف – ردَّ الله تعالى على اقتراحهم وهو ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا أعبد الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله أو تتوسلون بها لله الآن ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وأنتم يا من تساوموني على الإيمان بالله وحده لا شريك له لن تعبدوا الله تعالى الذي أدعوكم للإيمان به الآن ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ولا تطمعون في أن أعبد آلهتكم في المستقبل كذلك ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وأنتم ،أيها المساومون، لن تؤمنوا في المستقبل كما سيؤمن غالبية أهل مكة وسوف تموتون كفاراً ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فأنتم لكم طريقتكم الخاصة في العبادة أخذتموها عن آبائكم وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وأنا قد اصطفاني الله تعالى وأرسلني بالهدى ودين الحق لأظهره على كل دين سواه .

فوائد وعظات :

* الخطاب في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خطاب عام لكلِّ مشركي مكة أم خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ؟

والراجح أنه خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين فقط لأن الله تعالى حَكَم بموتهم على الكفر ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وقد أسلم معظم كفار مكة بعد ذلك في حياة النبي ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر : ١، ٢] .

* كيف يخاطب رسول الله ﷺ أهل مكة وهم أهله وعشيرته بهذا الخطاب الذي يكرهونه وينفرون منه ويثير عليه عداءهم ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ؟ بدلاً من التودد

إليهم واستمالتهم بالتلطف معهم في الخطاب ،وكيف يحكم عليهم بالكفر ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو يدعوهم للإيمان ؟

والحقيقة أن هذا الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ كلام الله تعالى وليس كلام رسوله ﷺ وهو إجابة على اقتراح عرضه رءوس الكفر في مكة على النبي ﷺ لذا افتتح الله جلَّ وعلا السورة بقوله : ﴿قُلْ﴾ لإشعارهم بذلك .

والسؤال ما زال قائماً لماذا يخاطب الله تعالى أهل مكة بـــ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟ ويحكم عليهم بالكفر ؟

إن هذا الخطاب الفصل ، كما قلنا ، جواب لقوم مخصوصين وليس لكل أهل مكة فهو من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم ، ولقد أيأس الله تعالى فيه رسوله من إيمان هؤلاء القوم وقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على إيمانهم حزيناً أشد الحزن على أنهم لم يؤمنوا بعد ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف : ٦]

كما أيأس الله تعالى هؤلاء الكفار من الطمع في موافقة الرسول ﷺ على مقترحهم الفاسد ومساومتهم الباطلة .

* هذه السورة قال عنها العلماء أنها سورة التوحيد والبراءة من الكفر ؛ فقد أمر فيها جلَّ وعلا نبيه ﷺ أن يتمسك فيها بالتوحيد الخالص لله تعالى وعبادته وفق ما شرع ، وأن يتبرَّأ من آلهة الكافرين وعبادتهم التي لم يأذن بها الله تعالى ولم تأمرهم بها آلهتهم المزعومة .

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿مَا﴾ في قوله تعالى : ﴿مَا تَعْبُدُونَ .. مَا أَعْبُدُ .. مَا عَبَدتُّمْ .. مَا أَعْبُدُ﴾ موصولة بمعنى الذي أم مصدرية ، وإن كانت موصولة كما قال جمهور المفسرين فلم وأُوثرت على " مَن " مع أنها تعود على ذات الله تعالى في الآيتين الثالثة والخامسة ؟

من قال إنها موصولة عللوا ذلك بأن كفار مكة ما كانوا لا يشكُّون في ذات الإله الحق الذي يعبده رسول الله ﷺ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت : ٦١]﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] ومع إيمانهم بذات الله تعالى كانوا يُلحدون في أسمائه حيث اشتقُّوا منها أسماء آلهتهم: كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنَّان ، وكانوا يعبدون هذه الآلهة المزعومة ليتقربوا بها إلى ذات الله الحق ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر : ٣] فالمقصود من " مَا " هنا: أسماء الله تعالى التي يلحدون فيها وليس ذاته ، وذكر بعض المفسرين أن " مَا " في الآيتين الثانية والثالثة موصولة ، وفي الآيتين الرابعة والخامسة مصدرية أي فأنا لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابِدون عبادتي .

* هل التكرار في السورة للتوكيد أم لزيادة الفائدة ؟

التكرار في السورة للتأكيد المطلق وزيادة الفائدة . التأكيد على إيمان النبي بالله تعالى وحده وتنزيهه عن عبادة الأصنام ، وزيادة الفائدة في إن هذا الإيمان يشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، والتأكيد على عدم إيمان الكفار المخاطبين بالله تعالى وإصرارهم على عبادة الأصنام في الأَزمنة الثلاثة أَيضًا واقتضى بيان هذا تكرار مادة " عَبَدَ " ستَّ مرّات في السورة .

* ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تذييل مُؤَكِّد لما قبله وقدم تعالى الخبر ﴿لَكُمْ﴾ على مبتدأ ﴿ دِينُكُمْ ﴾ للتخصيص والتوكيد .

***

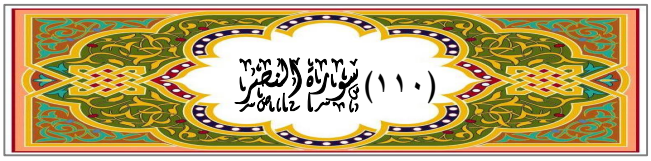

بين يدي السورة :

هذه السورة مَدَنِيَّة بالاتفاق وهي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم وهي أَجَلُ رسول الله أعلمه له كما جاء في الصحيح عن ابن عباس ، وهي تبشِّر النبي ﷺ بفتح مكة ودخول الناس في الإسلام ، وتعلمه أن خَتْم أعماله وشكر نعم ربه يكون بتسبيح الله تعالى والتوبة إليه .

فضل السورة :

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ رُبُعُ الْقُرْآنِ " [أخرجه أحمد والترمذي]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

اللغويات :

﴿الْفَتْحُ﴾ فَتَحَ البَلَدَ : غَلَبَ عليه وتملَّكه ﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فَوْج وهو : الجماعةُ من الناس ﴿فَسَبِّحْ﴾ سَبَّحَ : قال : سبحان الله ، وسَبَّحَ الله ، وله : نزَّهَه وقدّسه ﴿اسْتَغْفِرْهُ﴾ أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ : طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لِه ﴿تَوَّابًا﴾ التَّوَّاب اسم من أسماء الله الحسنى ومعناه : الذي يتوب على عباده ويقبل توبتهم .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يبشِّر الله تعالى نبيه ﷺ بالانتصار على أعداء الله تعالى وفتح مكة أحب بلاد الله إليه ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ كما يبشره تعالى بأن من ثمار فتح مكة دخول الناس في الإسلام جماعات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يُقَدِّسَه ويُنَزِّهَهُ بما

هو أهله ويشكره على جزيل نعمه : الانتصار على أعداء الله وفتح مكة وانتشار الإسلام ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب الغفران منه له ولأمته ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فالله تعالى يقبل التوبة عن عباده فهو عظيم الرحمة والمغفرة .

فوائد وعظات :

* لم يكن فتح مكة مجرد حرب انْتَصَرَ فيها المسلمون فحسب إنما كان دليلاً على صدق نبوة الرسول وإيذاناً بدخول قبائل العرب في الإسلام فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ قال : كَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلاَمِهَا الْفَتْحَ وَيَقُولُونَ : أَنْظِرُوهُ فِى قَوْمِهِ فَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِىٌّ ، وَهُوَ صَادِقٌ . فَلَمَّا جَاءَتْ وَقْعَةُ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ " [الْبُخَارِىُّ]

* عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلا يَقُولُ فِيهَا " في ركوعه وسجوده " سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي" [رواه البخاري]

* هل للنبي ﷺ ذنوب يطلب الله أن يستغفره منها ؟

إن في طلب الله تعالى من نبيه الاستغفار رغم أن النبي ﷺ مُنَزَّه عن الخطأ – فوائد منها : استغفار النبي ﷺ ليس لخطأ أرتكبه إنما لبيان أن العبد مهما عبد الله تعالى فإنه لا يفي بحق ربه عليه ؛ فنعمه تعالى لا يحصيها عد ولا يبلغ شكرها عبد ومن عظيم رحمته تعالى أنه يتجاوز عن تقصيرنا في شكر نعمه بالاستغفار ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١٨]

وكلما ترقى العبد في حب الله تعالى وعبادته قابل عفو ربه ورحمته وتجاوزه عن تقصيره بمزيد من العبادة والاستغفار فما بالكم بخير العابدين وخير خلق الله أجمعين ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا " (رواه مسلم)

إذا كان الله تعالى قد أمر خير خلقه بالاستغفار وقد كان النبي يتوب في كل جلسة مائة مرة فالاستغفار في حق من سواه أوجب وأدوم فعن ابن عمر قال: إن كنا لنعد في

المجلس للنبي ﷺ " رب اغفر لي وتب عليَّ ، إنك أنت التواب الرحيم" مائة مرة " [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه]

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ لِمَ جمع الله تعالى بين النصر والفتح أليس معناهما واحد ؟

النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب فالفتح هو نتيجة النصر لذا بدأ تعالى بذكر النصر وعطف الفتح عليه .

* وصف النصر بالمجيء مجاز وحقيقته إذا وقع نصر الله .

***

obeikandl.com

بين يدي السورة :

هذه السورة مكية بالاتفاق وتشتمل على تثبيت قلب النبي بإعلامه خسران وهلاك كل الكافرين الصادين عن دين الله ، وألا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم وسيكون مصيرهم النار .

سبب النزول :

روى الشيخان من حديث ابن عباس قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ فَقَالُوا مَنْ هذَا فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهذَا ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

اللغويات :

﴿تَبَّتْ﴾ : خسرت وهلكت ﴿كَسَبَ﴾ : عَمِل ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ : سيلقى في النار ﴿الْحَطَبِ﴾ : كُل ما جفَّ من زرع وشجر تُوقَدُ به النارُ ﴿جِيدِهَا﴾ : عُنُقِهَا ﴿مَّسَدٍ﴾ : اللِّيفُ المَتين الذي فُتِلَ بشدة .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ يردُّ الله تعالى على أبي لهب الذي قال للنبي " تَبًّا لَكَ " قائلاً إن دعاءك على محمد بالخسران والهلاك مردود عليك ﴿وَتَبَّ﴾ وقد أنجز الله

وعيده في أبي لهب فأهلكه ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ولم تنفع أبا لهب أموالُه ولا أعمالُه في الصدِّ عن سبيل الله ولم تنقذه من هلاكه على الكفر ؛ فقد نصر الله دينه وأهلك أعداءه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ويوم القيامة سيُلْقى أبو لهب في نار حامية جزاء محاربته الله ورسوله ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وزوجة أبي لهب أم جميل التي كانت تلقي الحطب في طريق النبي وتُحرِّض على تكذيبه وإيذائه ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ سوف يُطَوِّق عنقَها حبلٌ متين شديد الفتل تُجَرُّ به في جهنم .

فوائد وعظات :

* إن الله تعالى لا يحاسب الناس على حسب صُوَرِهم ولا أموالهم ولا مناصبهم وقوتهم ولا حتى قرابتهم للأنبياء والصالحين إنما يحاسبهم على حسب أعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨] فها هو عبد العُزَّى كان عَمًّا للنبي ﷺ وكان حسيباً نسيباً كما كان ذا حسن وجمال فقد كُنِّيَ بأبي لهب لإشراق وجهه ومع ذلك فإن كفره بالله ومعاداته للنبي أورده جهنم يصلاها مذموما مدحوراً ، يقول النبي ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" [رواه مسلم] .

* من دلائل نبوة الرسول ﷺ أنه أخبر عن أمور مستقبلية ستحدث، فكانت كما أخبر، ومن ذلك نبأ أبي لهب وزوجه وما ماتا عليه من الكفر والإلحاد .

* كانت أم جميل زوجة أبي لهب من أشراف مكة وكانت ، كما يقول سعيد بن المسيب ، لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت : واللات والعُزَّى لأُنْفِقَنَّها في عداوة محمد فأعقبها الله منها في جيدها حبل من مسد ، والمسد حبل من ليف يوضع حول رقاب البهائم تقاد به فانظر كيف جعل الكفر ومعصية الرسول السادة المترفين كالأنعام بل أضل سبيلاً .

من لطائف النظم القرآني :

* ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ مجاز مرسل فقد أطلق الله تعالى الجزء (اليدان) وأراد الكل أي هلاك أبي لهب .

* بين ﴿أبي لهب﴾ و ﴿ذات لهب﴾ جناس فلهب الأولى كنية عبد العُزَّى والثانية وصف للنار التي سيصلاها ولقد عَدَلَ الله تعالى عن ذكر اسمه إلى كنيته لتوافق كنيتُه مصيرَهُ .

* ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ استعارة للنميمة فالعرب تقول على من يسعى بين الناس بالنميمة : إنه يحمل الحطب بين الناس .

* إن كلمة ﴿وَتَبَّ﴾ تأكيد للدعاء على أبي لهب بالهلاك كما تعني تحقق الهلاك أي هلكت يداه وقد هلك ، والتعبير بالفعل الماضي لتحقق وقوع الهلاك.

* توافق الفواصل مراعاةً لرءوس الآيات ﴿تَبَّ .. كَسَبَ .. لَهَبٍ .. الْحَطَبِ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

obeikandl.com

بين يدي السورة :

هذه السورة من أعظم سور القرآن الكريم ؛ فهي تعدل ثلث القرآن ولقد بشر النبي ﷺ من أحبها بحب الله له " أخبروه أن الله يحبه " وقال لآخر "إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ" فهي صفة الرحمن كما جاء في الصحيحين ، ومن دعا بها دعا باسم الله الأعظم كما في السنن الأربعة (١) .

سبب النزول :

سورة الإخلاص من السور المختلف في سبب نزولها ومكانه قال قتادة والضحاك ومقاتل : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : صف لنا ربك ... فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة وهي نسبة الله خاصة .

وعن أبي بن كعب : " أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : قل هو الله أحد الله الصمد " .

ومن ثَمَّ قال بعض الباحثين: إنَّها نزلت مرَّتين، في الأولى ردّاً على مشركي مكة وفي الثانية ردّاً على يهود المدينة ، وعلى ذلك فالسورة مكيَّة وإن تكرَّر نزولها بالمدينة أيضاً .

فضل السورة :

الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ في فضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن من أصح الأحاديث وأشهرها، حتى قال طائفة من الحفاظ كالدارقطني : لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن أكثر مما صح عنه في فضل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وأما توجيه ذلك، فقد قالت طائفة من أهل العلم : إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث : ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي . و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هي صفة الرحمن ونسبه، وهي متضمنة ثلث القرآن . (٢)

(١) سنن : أبو داود ، الترمذي ، النسائي ، ابن ماجة ، بالإضافة إلى أحمد والحاكم وابن حبان
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٥ ص ٢١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

اللغويات :

﴿أَحَدٌ﴾ : الأحد الواحد الذي لا ثاني له ﴿الصَّمَدُ﴾ : هو السيد المقصود في قضاء الحاجات ﴿كُفُوًا﴾ : نظيراً ومماثلاً .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين واليهود وسائر الناس أن الإله الذي أومن به وأعبده وأدعوكم للإيمان به وعبادته هو الله الواحد الذي ثاني له ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ والله وحده القادر على قبول دعاء خلقه وقضاء حاجاتهم ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ والله تعالى ليس له ولد كما زعم اليهود والنصارى ﴿ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] والله ليس له أب ولا أمٌّ فهو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الأخر الذي ليس بعده شيء﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ والله تعالى لا نظير له ولا مماثل ولا شريك له ولا مكافئ .

فوائد وعظات :

* هذه السورة اشتملت على أعظم حقيقة في الوجود وهي وجود الله تعالى ووحدانيته ، ولقد أقام الله تعالى في القرآن الكريم براهين قاطعة على وجوده تعالى ووحدانيته أوضحها أربعة براهين : الأول : قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] ولم يدَّع مخلوق أنه خلق شيئاً من الكون حتى من ادَّعوا الإلوهية . فإذا ثبت أن الله تعالى خالق جميع المخلوقات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق : ٣٨] فلا يصح أن يكون واحد من هذه المخلوقات شريكاً لله .

الثاني : قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] وهو دليل الإحكام والإبداع . الثالث : قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا﴾ [الإسراء :٤٢] وهو دليل القهر والغلبة – الرابع : قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] وهو دليل التنازع والاستعلاء ثم أكدَّ الله تعالى وحدانيته واحتياج الخلق إليه واستغناءه عن العالمين بقوله تعالى :﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ . (١)

* كان رجل من الأَنصار يَؤُمّ الناس في مسجد قُبَاء كان كُلَّمَا افْتَتَحَ سورةً يَقْرَأُ لَهُمْ في الصلاة فقرأ بها افْتَتَحَ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حتى يَفْرُغَ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلَّمَه أَصحابه فقالوا: إِنَّكَ تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أَنها تُجْزِئُكَ حتى تقرأَ بسورة أخرى فَإِمَّا أَن تقرأَ بها وَإِمَّا أَن تدعها وتقرأَ بسورة أخرى، قال: ما أنا بِتَارِكِهَا إن أَحببتم أَن أَؤُمَّكُمْ بِهَا فعلت وإن كرهتم تركتكم وكانوا يرونه أفضلهم وكرِهُوا أَن يؤمهم غيره فلما أَتاهم النَّبِيُّ ﷺ أَخبروه الخبر فَقَالَ : " يَا فُلانُ مَا يَمْنَعُكَ مِمَّا يَأْمُرُ بِه أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ أَنْ تَقْرَأَ هَذِه السُّورَةَ في كُلِّ رَكْعَة " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : " إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّة " (صحيح رواه الترمذي)

وبعض الناس عندما يسمع هذا الحديث وغيره في فضل قراءة سورة الإخلاص في الصلاة يفرح لأنه لا يقرأ إلا بها – مع حفظه لغيرها – أو يقرأ بها في ركعة وبإحدى السور القصيرة في الأخرى ليس حباً لها ولا تدبراً لمعانيها وتفكراً فيها إنما يَتَقَالُّهَا ويستسهلها ، ونقول لهؤلاء إن الصحابة الذين بشرهم النبي بحب الله لهم، وبدخولهم الجنة بسبب حبهم لسورة الإخلاص وقراءتهم بها في الصلاة أنهم لم يكونوا يَتَقَالُّونَها إنما كانوا يحبونها حقاً ويتلونها حق تلاوتها ويتدبرون معانيها .

من لطائف النظم القرآني :

* هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز وأوضحت صفات الجلال والكمال ، ونزَّهت الله تعالى عن صفات العجز والنقص ؛ فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية ، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

(١) محمد علي الصابوني " صفوة التفاسير " ج ٣ ص ٦٢١

وأثبتت الثانية كماله تعالى ، ونفت النقص والعجز ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته تعالى وأبديته ، ونفت عنه الذرية والنسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله ونفت الأنداد والشركاء ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١)

* ضمير الغائب لابد أن يعود على اسم ظاهر سابق عليه ولكن في هذه السورة عاد ضمير الغائب ﴿هُوَ﴾ على ما بعده ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وذلك لأن الضمير ﴿هُوَ﴾ هنا يعود على الله تعالى الذي تشهد الفِطَر بوجوده وتُقِر العقول بوحدانيته ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٤]

* الأصل أن يأتي المبتدأ معرفة والخبر نكرة فإذا جاء المبتدأ والخبر معرفتين أفادا القصر والتخصيص ولقد جاءا معرفتين في قوله تعالى﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ مما يدل على قصر قضاء الحاجات على الله تعالى وحده دون أحد من مخلوقاته فمن قضى لك حاجة فإنما هو سبب فحسب .

* الفرق بين واحد وأحد يقول علماء اللغة : إنَّ أحد لا يُبنى عليه العددُ ابتداءً فلا يقالُ أحدٌ واثنانِ كَما يقالُ واحدٌ واثنانِ ولا يقالُ رجلٌ أحدٌ كما يقالُ رجلٌ واحدٌ ولذلكَ اختصَّ بهِ تعالَى .

* قدَّم الله تعالى قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على قوله : ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً ، ثم يكون والداً وذلك لأن مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ولم يدَّع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال : ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كأنه قيل : الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره . (٢)

* بالإضافة إلى ما اشتملت عليه السورة من فصاحة الألفاظ وعمق المعنى ودقة الصياغة اشتملت على توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿أحد .. الصمد .. يولد .. أحد﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

(١) محمد علي الصابوني " صفوة التفاسير " ج ٣ ص ٦٢٢
(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٧ ص ٣٠٣

بين يدي السورة :

سورة الفلق أولى المعوذّتين والأخرى سورة الناس وقد اشتملت على الاستعاذة بالله من شر أمور أربعة : شر المخلوقات التي لها شر عموماً ، وشر ما يجري في الليل إذا أقبل ، وشر الساحرات النفاثات في العقد، وشر الحاسد إذا حسد .

وهي سورة مدنية كما بينَّا في سورة الناس .

فضل السورة :

ورد في فضل المُعَوِّذَتَينِ ، وأنهما أَفْضَلُ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ أحاديث كثيرة صحيحة ذكرنا بعضها في سورة الناس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

اللغويات :

﴿أَعُوذُ﴾ ألجأ وأعتصم ﴿الْفَلَق﴾ الصبح أو الخَلْق ﴿غَاسِق﴾ الليل أو القمر ﴿وَقَبَ﴾ أقبل ﴿النَّفَّاثَات﴾ النَّفْث : النَّفْخ ، والنَّفَّاثَات : النفوس الخبيثة التي تمارس السحر من النساء والرجال. ﴿الحَسَد﴾ تمنى زوال نعمة المحسود .

المعنى الإجمالي للآيات :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ وكل مسلم أن يلجأ إلى الله تعالى من شر خلق الله عامة ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ومن شر ما يرتكب في الليل من معاصٍ وآثام وجرائم وأذى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر النفوس الخبيثة من الساحرين والساحرات الذين يأكلون أموال

الناس بالباطل بما يقومون به من سحر التخييل أو سحر إرادة الضر بالناس ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال نعمة الله التي تفضل بها على عباده .

فوائد وعظات :

* السَّحْر لُغَةً : مَا لَطُفَ وَخَفِي سَبَبَهُ .

والسحر نوعان : سحر تَخْيِيل وسحر إرادة الضر .

أما سحر التخييل فهو نوع من المهارة تجعلك ترى ما ليس حقيقيًّا أنه حقيقي ، والحقيقي ليس حقيقيًّا ؛ فهم لا يستطيعون أن يحولوا التراب ذهباً فيستغنوا بسحرهم عن أموال الناس ، وسحرة فرعون سحرة تخييل ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه : ٦٦] ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]

والنوع الثاني من السحر هو **سحر إرادة الضر** مثل التفريق بين المرء وزوجه، وهذا النوع لا يقع إلا بإرادة الله تعالى فالله تعالى هو النافع الضار ، فالساحر يريد الضر فقط لكن الذي عنده قدرة على إيقاعه أو كشفه هو الله تعالى .

* ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله﴾ [البقرة : ١٠٢]

وهذا النوع من السحر من ابتلاء الله تعالى يبتلي به بعض عباده ، ونجاة العبد منه تكون بالاستعاذة بالله تعالى والرقية بالمعوذتين .

وسحر إرادة الضر بالعباد يكون بالاستعانة بالشياطين ، وربما سحر التخييل كذلك أحياناً وإن كان الغالب في سحر التخييل اعتماده على خِفَّة اليد ومهارة الحركة واستخدام أدوات خاصة والاستفادة من بعض خواص الأشياء .

ولا يجوز تعلم السحر حتى لمعرفة أسراره وتحذير الناس من شروره لأنه سرعان ما ينقلب السحر على الساحر ، فالشياطين الذين يستعينون بهم سيزيدونهم إثما وكذباً ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ [الجن : ٦] وأنه مهما أُوتِي الساحر من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك مَيْزةً على غيره ، ولن تكون له قدرة على شيء . ﴿وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى﴾ [طه : ٦٩]

وكثير من الأمراض العضوية يخطئ الناس بنسبتها لأعمال السحر ، ومسِّ الجن مع إنها إما أمراض عَصَبيَّة أو نَفْسيَّة أو عَقْليَّة ، ومَرْجع هذه الأمراض والعلل إلى الأطباء المُختصين أولاً فإذا ما عجز الطب عن علاجهم فعليهم أن يستعينوا بمن يُرْقي بكتاب الله تعالى ولابد أن تتوفر فيه شروط هي : أن يكون مسلماً ، حافظاً لكتاب الله أو لكثير منه ، من أهل التقوى والورع والصلاح ، لا يتقاضى أجراً ، ولا يعالج بمحرَّم .

* ليس كل حاسد شريراً ، فالحسد نوعان : مذموم ، ومحمود .

الحسد المذموم هو تمني زوال نعمة المحسود ، والمحمود تمني نعمة الغير دون تمني زوالها فهو حسد في الخيرات وتنافس في الطاعات ويسمى غبطة ومنافسة .

والمنافسة ليست بحرام وهي مشتقة من النفاسة يقول تعالى ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون﴾ [المطففين : ٢٦] .

ويقول الرسُولُ ﷺ " لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ قُرْآنًا فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " (الْبُخَارِىّ)

ويقول ﷺ " رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَآتَاهُ مَالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِى مَالِهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا ، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ آتَانِى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ مَا أُوتِىَ فُلاَنٌ لَفَعَلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ فَهُمَا فِى الأَجْرِ سَوَاءٌ " [صحيح رواه أحمد وغيره]

إن سعادة العبد في الدارين أن يقوم بما أمره الله تعالى به من عباد الله وتزكية للنفس وتعمير للأرض والرضا بما قسمه الله تعالى له وينافس غيره في هذا أما تمنيه زوال نعمة غيره فهذا اعتراض على حكمة الله تعالى في العطاء والمنع

ويحذر النبيﷺ من الحسد المذموم فيقول " لا يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ مُؤْمِنٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفَيْحُ جَهَنَّمَ وَلا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالْحَسَدُ " [ابن حبان]

* أمر الله تعالى المسلم أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد فهل الحسد والعين يضران المحسود ويؤثران فيه أم أنهما فقط يؤثران بالسلب في الحاسد كقول ابن المعتز :

اصبِرْ على حَسَدِ الحَسودِ ** فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فالنّارُ تأكُلُ بَعضَها ** إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

الحقيقة أن الحاسد حسداً مذموماً يوقع بنفسه الضر في دينه ونفسه وربما في بدنه أيضاً فهو ساخط على نعمة غيره غير راضٍ على فضل الله عليه فيجعل الله تعالى الفقر بين عينيه فلا يقنع ولا يشبع لذا يعلمنا النبي ﷺ أن ننظر إلى الأقل منا في النعم المادية حتى نحمد الله تعالى على ما عندنا من نعم .

"انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُو أَسْفَلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ" [متفق عليه]

ولكن السؤال هل هناك ضرر يقع على المحسود من عين الحاسد ، الحقيقة إن الحاسد كالساحر يريد الضر بغيره ولكن الله تعالى احتفظ لذاته بتحقيق الضر أو كشفه فهو تعالى النافع الضار .

ولقد ثبت في الصحيح أن العين حق " العَينُ حقٌ ، ولو كان شيءٌ سَابقُ القَدَرَ سَبقتْهُ العينُ " [رواه مسلم]

قوله ﷺ : (العين حق) أي الإصابة بها من جملة ما تحقق أمره ووقوعه، وأن لها تأثيراً في النفوس والأموال والممتلكات ، بقدرة الله تعالى وفعله، أجرى الله سبحانه به عادته .

وعنه ﷺ أنه قال : " عَلاَمَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ " [النسائى وابن ماجه والطبرانى]

ففي هذين الحديثين ما يثبت أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه. (١)

والسنة إذا حصل الحسد فالعلاج أن يتوضأ العَائِن (الحاسد) ويصب ماء وضوئه على المَعِين (المحسود) ، وهذا من أسباب سلامته من هذه الإصابة بالعين .

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٦، ٢٢٧ .

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ " [حديث صحيح رواه أبو داود]

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إن الحسد إذا تفشى في مجتمع فكك أوصاله وقطع روابطه وأصبح بأس أبنائه بينهم شديد ؛ فلا يحب بعضه بعضاً، ولا يرحم بعضه بعضاً، بل يتمنى بعضه زوال النعمة من غيره ، فهنا لا شك أن لعنة الله نازلة وعقابه لذا جاء في الصحيح " لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا " [الطبراني] والذي يؤلف القلوب ويجمع بينها في خير هو الله تعالى وحده رب الفلق لذا أمر الله تعالى بأن يستعاذ به من شر حاسد إذا حسد .

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : ١٣]

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣]

إذن تأليف القلوب والتراحم بين الناس وطرد التباغض والتحاسد من آثار الإيمان بالله تعالى والاستعاذة به سبحانه من شر ما خلق .

* والشر المستعاذ منه نوعان أحدهما موجود يطلب رفعه والثاني معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد كما أن الخير المطلق نوعان أحدهما موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه والثاني معدوم فيطلب وجوده وحصوله مطالب العباد أربعة ، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين وعليها مدار طلباتهم . (١)

* ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذياب كالسباع والهوام وغيرهما ، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذي من الجن والإنس أيضاً ووصف أفعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة (ما) لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة وشرور الماء والنار ، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء .(٢)

(١) التفسير القيم ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) تفسير الفخر الرازي ١٧ / ٣١٢

فإن قيل إن الله لا يخلق الشر نقول إن الله تعالى يبتلي بالشر ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ثم الذي يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى : ﴿إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً﴾ [المعارج : ٢٠] وقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ [فصلت : ٥١] .

* ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر الليل مع أن الليل من آيات الله الكبرى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ .

فالليل من آيات الله الكبرى ومن نعم الله العظمى ففيه السكن وفيه النوم والراحة من عناء العمل فالليل إذن رحمة تستحق الشكر وليس شراً يستعاذ منه ، ولقد أقسم الله تعالى بالليل في كثير من آياته .

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ .

وقسم الله ببعض مخلوقاته تعظيم لشأنها بل إن هناك سورة باسم الليل فكيف بعد كل هذا يأمرنا الله تعالى بالاستعاذة من شر الليل ؟!

وأولاً : الله تعالى لم يأمرنا بالاستعاذة من شر الليل إنما من الغاسق ، والغسق هو ظلام الليل ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

فالغسق ليس هو الليل إنما ظلامه أو هو القمر كما جاء في السنة فعَنْ عائشَةَ رضيَ الله عنْهَا أنَّها قالتْ أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي فأشارَ إلى القمرِ فقالَ تعوذي بالله تَعَالَى منْ شَرِّ هَذا فإنَّهُ الغاسقُ إذَا وقبَ " (صححه الترمذي والحاكم).

وقال الزجاج الغاسق في اللغة هو البارد ، وسمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، ومنه قوله إنه الزمهرير .

من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة وأقوال المفسرين المختلفة نستنتج أن كل ملازم لليل فهو غاسق .

وإضافة غاسق للشر لملابسته لَهُ بحدوثه فيه وتنكيرُهُ لعدمِ شمولِ الشرِّ لجميعِ أفرادِه ولا لكُلِّ أجزائه ، أو إضَافَةُ الشّرِّ إِلَى غَاسِقٍ مِنْ إِضَافَةِ الاسْمِ إِلَى زَمَانِهِ عَلَى مَعْنَى (فِي) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

وخصَّ الله تعالى الغاسق بالاستعاذة من شره لأن الشر دائمًا مقرون بالظلمة؛ ولهذا جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من

الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، لذا ينسب شرار الناس لليل فيقال "ابن ليل" على المجرمين معتادي الإجرام ، ويقال : " فتاة ليل " على العاهرات محترفي البغاء ، ويقال : " عُلَب الليل والملاهي الليلية " على محال الفسق والفجور (الكباريهات) ، ويقال هذا أمر " دُبِر بليل " على المؤامرات وكذا فإن الغاسق مَوْطِن الأشرار والجرائم والفساد والمنكرات .

* إن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئًا إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع . (١)

الإعجاز العلمي في السورة :

أثبت العلم الحديث أن هناك أفراداً قلائل يتميزون بوجود بؤر نشطة لانبعاث الطاقة فإذا صحب ذلك أن كان هؤلاء الأشخاص منطويين على أنفسهم كثيري التأمل فيما عند غيرهم من النعم، كثيري التألم النفسي على عدم وجود مثل هذه النعم لديهم، نشطت عندهم هذه البؤر، وخاصة بؤرة ما بين العينين وأصبح الشخص من هؤلاء شخصاً حاسداً أو شخصاً عائناً على حد تعبير الحديث النبوي الشريف؛ فإذا ما تحركت نفس هذا الشخص العائن تجاه شخص ذي نعمة واستكثرها عليه صدرت انبعاثات من الطاقة ذات شفرة خاصة من البؤرة بين العينين وأثرت على الشخص المعين فأفسدت الطاقة في جهازه العصبي أو غيره فيصاحب ذلك خلل يؤدي إلى مرض أو ألم أو فساد أو ضعف أو غير ذلك، وهذا هو مفهوم العين تماماً كما صورها الحديث النبوي الشريف .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ج٥ / ٤٩٢

وهناك دراسات مذهلة تمت في منتصف القرن الماضي في الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا وروسيا، في موضوع الطاقة الكونية ، توصلت إلى أن الفكرة تؤثر في حركة الجزيئيات الداخلية في النواة، وبالتالي فإن الفكرة بقوتها قد تؤثر في النواة، وإذا كانت أقوى أثرت بالذرة، وإذا كانت أقوى أثرت بالبيئة المليئة بالذرات، كما يحصل للنفس الحاسدة (العين) أو التخاطر أو الكشف أو السحر أو الإلهام أو غيرها من أمور،

ثم أن الدراسات كشفت أن القدرات هذه ليست حكراً على أحد أو خاصية يتمتع بها أناس متميزون عن غيرهم، بل هي موجودة في معظم البشر، وأقل البشر، شريطة أن يدرك قدراته ويعرف الطرق لاستخدامها، ولعل أعجب القدرات على اختراق المادة بالنفس امتلكها الشاب (ماثيومانينغ) (Manning Matthew) فقد كان باستطاعته طوي الملاعق والسكاكين وتغيير شكلها بمجرد النظر، وكان ينظر إلى عقارب الساعة فيوقفها عن الحركة، ويستطيع إيقاف التيار الكهربائي، وثبتت لديه القدرة على التأثير في سريان الدم في الأوعية والشرايين وكذلك التأثير على مرض السرطان . " (١)

من لطائف النظم القرآني :

* لما كانت الشرور التي تصيب الإنسان من شرار خلق الله كثيرة وشديدة فإن الله تعالى استهَّل السورة بالأمر بالاستعاذة بالله من هذه الشرور ، وجعل السورة قصيرة ليسهل حفظها وقراءتها في أي وقت وحين .

* لما كانت شرور خلق الله متجددة ومستمرة فإن الفعل " أعوذ " جاء في صيغة المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار .

* قوله تعالى ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عام في كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟

إن عطف الخاص على العام من أنواع الإطناب وفائدته ها هنا بيان أن هذا الخاص من أعظم أنواع الشر الذي اشتمل عليه العام .

* الفَلَق يعم ويخص، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النَّهارى أستعيذ من شر غاسق إذا وقب .

(١) قسطاس إبراهيم النعيمي " الإعجاز العلمي في الحسد والعين " موقع جماعة الإيمان بتاريخ ٧ يناير ٢٠١٣

فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عمومًا، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب، وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر والحسد . (١)

* عرَّف الله تعالى النَّفَّاثات لأن كل نفَّاثة شريرة ، ونكَّر غاسقاً لأنه ليس كل ما يتم في الليل شر فهناك ﴿الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ والذين ﴿ قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ١٧ –١٨] فكما أن هناك من يرتكب الشرور مستتراً بظلام الليل وبظلام قلبه هناك من أضاءوا لياليهم بذكر الله والصلاة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر : ٩]

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ﴿ٱلْفَلَقِ .. مَا خَلَقَ﴾ و ﴿ٱلْعُقَدِ .. حَسَدَ﴾ يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن ، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ج٥ / ٤٩٠

obeikandl.com

بين يدي السورة :

هي أخر سور القرآن الكريم التي ختم الله تعالى بها كتابه العزيز حسب الترتيب المصحفي ، وهي إحدى المُعوِّذَتين الأولى الفَلَق وهذه النَّاس وقد اشتملت على الاستعاذة بالله من شر شياطين الجن والإنس .

واختلف المفسرون حول سورة الناس مكية أم مدنية ؟

وَفَصْلُ الخطاب في هذه المسألة ما دَلَّ عليه حديث عُقْبَةَ بن عَامِرٍ الجهَنِيِّ وحديث أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، وَهُمَا حَدِيثَانِ صَحِيحَانِ فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قال : قالَ رَسُولُ الله ﷺ " أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ " [رواه مسلم]

وراوي الحديث عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ الجُهَنِيُّ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ للمدِينَةِ ، وَكَانَ من أَهْلِ الصُّفَّةِ .

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : " أُنزِلَتِ الليلَةَ " يَدُلُّ على حَدَاثَةِ نُزُولِهَا عندَ التَّحديثِ .

وَقَوْلُهُ ﷺ : " لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ " ينفي احتمَالَ تَكَرُّرِ النُّزُولِ .

وعَنْ أَبي سَعِيدٍ الخدريِّ قالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ الْجَانِّ وَعَيْنِ الإِنسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا " [رواه النسائي والترمذي]

وَأبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ من طَبَقَةِ صِغَارِ الأَنصَارِ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدِينَةَ وَهُوَ غُلامٌ .

فَالصَّحِيحُ أَنَّ المُعوِّذتين مَدَنِيَّتَانِ. (١)

فضل السورة :

ورد في فضل المُعوِّذَتَينِ ، وأنهما أَفْضَلُ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ أحاديثُ كثيرة صحيحة منها .

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة انظر عبد العزيز الداخل " مسائل في نزول المعوذتين " موقع ملتقى أهل الحديث .

عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ (نَفَخ) فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ." [متفق عَلَيْهِ]

ولم يترك النبي ﷺ التعوذ بالمعوِّذتين منذ نَزَلَتَا حتى مرضه الأخير فعَنْ السيدة عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا " (متفق عليه)

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ بَيْنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ إِذْ قَالَ أَلا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ أَلا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً فَنَزَلَ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً وَنَزَلْتُ وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ أَلا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ فَأَقْرَأَنِي قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَأُقِيمَتْ الصَّلاةُ فَتَقَدَّمَ فَقَرَأَ بِهِمَا ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ " [حديث صحيح رواه أحمد والنسائي]

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَا ابْنَ عَابِسٍ " أَلا أَدُلُّكَ أَوْ قَالَ أَلا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ " [حديث صحيح رواه أحمد والنسائي]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

اللغويات :

﴿أَعُوذُ﴾ : ألجأ وأعتصم ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ : الرب هو الذي يقوم بتدبير أمر غيره ، وإصلاح حاله ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة ، ورب الناس : خالقهم

ورازقهم ومدبر شئونهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي المالك لأمرهم ملكاً تاماً ، والمتصرف في شئونهم تصرفاً كاملاً ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ الإلهُ : كلّ ما اتُّخذ معبودًا بحقّ أو بغير حقّ والجمع : آلِهَة ، إله النِّاس : مَعْبُودِهِم الحقَّ ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ اسم للوسوسة وهى الصوت الخفي ومنه : وسواس الحلي ﴿الْخَنَّاسِ﴾ : صيغة مبالغة من الخُنُوس ، وهو الرجوع والخَنَّاس المُتَوَاري المُخْتَفي والمقصود الشيطان ﴿يُوَسْوِسُ﴾ : يتكلَّم بكلام خفيٍّ مختلط لم يُبيِّنه وَسْوَسَ الشيطانُ إليه ، وله ، وفي صدره وَسْوَسَةً ، ووِسْوَاساً : حدَّثه بما لا نَفْعَ فيه ولا خير ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ : أي من شيطان الجن ومن شيطان الإنس .

المعنى الإجمالي للآيات :

الله تعالى يأمر عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يلجأ ويعتصم به تعالى من شرور الشيطان فهو سبحانه رب الناس الذي خلقهم ورزقهم ويرعى شئونهم ، وهو تعالى مالكهم الحقيقي والقاهر فوق عباده وهم مقهورون بسلطانه وخاضعون لأمره ، وهو تعالى معبودهم الحقيقي المستحق للعبادة والطاعة وهو وحده القادر على حفظهم وحمايتهم من شرور شياطين الجن والإنس الذين ينفثون شرورهم في قلوب الناس حتى يضلوهم عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

فوائد وعظات :

* ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ هذه ثلاث صفات من صفات الله تعالى : الربوبية ، والملك ، والإلهية : فهو رب كلِّ شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المُسْتَعِيذ أن يَتَعَوَّذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخنَّاس ، وهو الشيطان المُوكَّل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش، والمعصوم من عَصَم الله . (١)

يقول النبي ﷺ " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرُنِي إِلا بِخَيْرٍ" [مسلم]

وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بِنتِ حُيَيٍّ قالتْ : كان النبيُّ ﷺ مُعْتَكِفاً ، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي ، فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا

(١) تفسير ابن كثير ٥٣٩/٨

النَّبيَّ ﷺ أسْرَعَا . فقال ﷺ : " عَلَى رِسْلِكُمَا ، إنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ " فَقَالاَ : سُبْحَانَ اللهِ يَا رسولَ الله ، فقالَ : " إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإنِّي خَشِيْتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرّاً – أَوْ قَالَ : شَيْئاً " [متفق عليه]

* بدأت السورة بقوله تعالى " قُلْ " للدلالة عن أن هذه السورة رُقْيَة يقرأها العبد على نفسه أو على غيره في المرض وعند نزغ الشيطان وليست فقط للدلالة على وجوب الإيمان بالله تعالى والاستعانة به .

وكلمة " قُلْ " تؤكد أن هذا القرآن موحى به من عند الله وليس من كلام محمد ﷺ كما ادَّعى الكفار ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] فلو كان محمد ﷺ افتراه ما كان ليقول لنفسه " قُلْ " وهو القائل ، وما كان ليستعين برب الناس ملك الناس إله الناس وهو يفتري عليه الكذب ، فليس للنبي ﷺ في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قِبَل نفسه بل هو المبلغ له عن الله ، وقد قال الله له ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كما قال الله .

الشيطان في القرآن

والمعركة بين الشيطان والإنسان قديمة قدم البشرية ذكرها الله تعالى في مواضع كثيرة في كتابه العزيز فقد رفض إبليس أن يسجد لآدم إذ أمره الله تعالى كبراً وحسداً وتفاخراً بجنسه ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٢، ١٣]

وبدلاً من أن يستغفر إبليسُ اللهَ تعالى ويندم ويتوب حتى يغفر الله تعالى له راح يسدر في غيِّه ويطلب من الله تعالى ألا يُعجِّل له العذاب وأن ينظره إلى يوم القيامة حتى ينتقم من آدم وذريته مع أن آدم لا دخل له فيما جرى لإبليس فلم يطلب منه السجود ولم يتوعده بالعذاب إنما كبر إبليس هو سبب معصيته وكفره ، ولكن غباء إبليس سوَّل له أن آدم هو سبب غضب الله عليه ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف : ١٢ –١٨] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ

وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩ – ٤٣]

وهكذا قضت الحكمة الإلهية أن ينْظِر إبليس إلى يوم القيامة وأن يمتحن الإنسانَ بغاوية الشيطان له وتوعَّد تعالى إبليسَ وكلَّ من اتبعه بجهنم .

وغاية الشيطان ضلال الإنسان فيوسوس له بالكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله فإذا يئس من العبد وسوس له بفعل الكبائر على اختلاف أنواعها فإن عجز وسوس له بفعل صغائر الذنوب التي يقول النبي فيها : " إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ " (أحمد والطبرانى والبيهقى)

ولم يترك الله تعالى الإنسانَ في معركته مع الشيطان مجرداً من العُدَّة ؛ فقد أمدَّه بالعلم فقصَّ عليه قصة الشيطان وبيَّن له سبب عداوته له ، وجعل تعالى للإنسان من الإيمان حصناً ، ومن ذكر الله عُدَّة ، ومن الاستعاذة به سلاحاً .

ولقد ذكر الله تعالى الشيطان والشياطين نحو مائة وأربعين مرة في القرآن الكريم وحذَّر من تتبع خطواته ومن اتخاذه ولياً أو قريناً وفضح طرق غوايته وضلاله ووسائله وأدواته ، ونهى عن عبادته وطاعته والانضمام لحزبه ، وبيَّن عاقبة اتباعه في الدنيا والآخرة .

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة :١٦٨، ١٦٩)

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا﴾ [النساء : ٣٨]

﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩ ،١٢٠]

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

[يس : ٦٠ –٦٢]

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩]

ولقد أمدَّنا الله تعالى بسلاح مقاومة الشيطان وهو سلاح سهل يسير لأن كيد الشيطان ضعيف .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس : ١- ٤]

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١]

﴿وَإِمَّا يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم﴾ [فصلت : ٣٦]

كما كشف الله تعالى عن المشهد الختامي لقصة الشيطان وموقفه من أتباعه

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢]

إن الشيطان سوف يقرُّ بالحقيقة يوم القيامة ويعترف بخادعه وكذبه ويصرح لأوليائه بأن وعد الله تعالى هو الحق ووعده هو الباطل لكنه يلقي بالتبعة على أوليائه فهو لم يقهرهم على طاعته فلم يكن يملك من قوة يقهر بها أتباعه، ولا معه من حجة يقنعهم بها ، لم يكن يملك غير الوسوسة بالكفر والمعصية لذا يعود اللوم على أتباعه الذين اتبعوه .

هذه خلاصة قصة الشيطان في القرآن تبدأ بمشهد معصيته وكفره وتنتهي بمشهد عذابه هو ومن اتبعه ، وبين البداية والنهاية يدور الصراع بين الشيطان وبين الإنسان يسعى فيها الشيطان إلى أن يضل الإنسان ، والإنسان بين : مستسلم لغواية الشيطان ، مستعيذ برب الناس ملك الناس إله الناس منه .

من لطائف النظم القرآني

* الفعل ﴿أَعُوذُ﴾ جاء في صيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار فالاستعاذة بالله تعالى يجب أن تكون متجددة ومستمرة .

* لمَّا كان المستعاذ منه هو شياطين الجن والإنس الذين يرمون إلى إفساد العقل والبدن ، وتكدير صفو الحياة ، وهدي الدين فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهي الرب والمَلِك والإله فالمُربِّي يصلح العقل والخُلُق ، والمَلِك يوفر ويحفظ مقومات الحياة المأكل والمشرب والملبس والأمن ، والإله يهدي للحق ويثبت القلوب على الدين .

* بدأ سبحانه بإضافة الناس إلى ربهم ، لأن الربوبية من أوائل نعم الله تعالى على عباده ، وثنَّى بذكر المالك ، لأنه إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مدركاً ، وختم بالإضافة إلى الإلوهية ، لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعلم ، يدرك أن المستحق للعبادة هو الله رب العالمين .

وقد تدرَّجت الآيات من الكثرة إلى القلّة فالربّ هو المرشد الموجّه وقد يكون في المجتمع الواحد العديد من المرشدين والمربّين لكن لكل دولة أو مجتمع ملك واحد والدنيا فيها ملوك كثر ولكن إلهها وإلههم واحد فانتقل من الكثرة للقلة من حيث دلالة الكلمة بالعدد (الرب كثير، الملك أقلّ وأما الإله فهو واحد) .

ولا يجوز أن يأتي بحرف العطف فيقول برب الناس وملك الناس وإله الناس فجاءت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ﴾ حتى لا يُظنّ أنهم ذوات مختلفة ، بل هي ذات واحدة، فهو سبحانه المربي وهو الملك وهو الإله الواحد. وحتى لا يُظن أن المقصود أكثر من واحد، بل هو واحد سبحانه، فمن أراد الرب يقصد رب الناس ومن أراد المِلك يقصد ملك الناس ومن أراد الإله فلا إله إلا الله .

* أضيفة كلمة الناس إلى رب وملك وإله لأن من الناس من ادَّعى الربوبية والملك والإلوهية مثل فرعون الذي قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ وقال ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وفي إضافة كلمة الناس بيان بأن الله تعالى وحده هو الرب الحقيقي الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى ومن مَلَك شيئاً في الدنيا فبتمليك الله تعالى له ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ " [النحل : ١٧، ١٨] ورغم ادِّعاء فرعون وغيره أنهم أرباب وآلهة من دون الله إلا إن أحدهم لم يجرؤ على ادِّعاء أنه خلق شيئاً من الكون أو عنده القدرة على تغيير أيٍّ من السنن الكونية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] والله تعالى وحده لا شريك له هو الملك الحقيقي ، فالإنسان يولد عارياً صفر اليدين ويموت عارياً خالي الوفاض ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران : ٢٦] ويوم القيامة يُرَد المُلْك لصاحب المُلْك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] والله تعالى هو المعبود بحق بمقتضى أنه رب الناس وملك الناس فاستحق أن يكون أله الناس ومعبودهم بحق ، والعجيب أن أكثر الناس يؤمنون بتوحيد الربوبية ولا يؤمنون بتوحيد الإلوهية فيسلمون بربوبية الله تعالى ويجحدون إلوهيته !

فأهل مكة يؤمنون بأن الله هو خالقهم وخالق السموات والأرض وما فيهما وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] وقال سبحانه : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦٣] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٥]

والحقيقة التي تجاهلها المشركون هي أن توحيد الربوبية يشير إلى توحيد الإلوهية بناء على أن اختصاص الربوبية به عز وجل علَّة لاختصاص الإلوهية واستحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى .

إن كل البشر مؤمنهم وكافرهم ينتفعون بعطاء الربوبية ، ولكن العجيب حقاً أن أكثرهم يرفضون عطاء الإلوهية يرفضون توحيد الله تعالى وعبادته رغم أن توحيد الله تعالى وعبادته من تمام نعم الله تعالى على عباده فهي تعود عليهم بالنفع فالله غني عن العالمين ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم : ٨] ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أن منفعة

الإيمان والطاعة والشكر إنما تعود على المؤمنين الطائعين الشاكرين ، وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين . أما الله فلن تنفعه طاعة المطيع ، ولن تضره معصية العاصى .

وفي هذا يقول النبي ﷺ فيما يروي عن الله تَبَارَكَ وتعالى " يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ " [مسلم]

* أمر الله تعالى بالاستعاذة به في هذه السورة ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ وليس (من الوسواس) كما في الاستعاذة من الشيطان﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] لأنه هنا لم يحدد الشيطان، بل قال : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فجعل الوسواس قسمين: من الجِنّة أو من الناس فالجِنّة فيهم صالحون وفيهم قاسطون ﴿وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون﴾ [الجن : ١٤] كما على لسان الجن في سورة الجن، لذا لا يصحّ الاستعاذة من الجِنّة عموماً وكذلك الناس نحن نستعيذ من الظالمين والأشرار من الناس وليس من الناس جميعاً ولذا جاءت الآية بتحديد الاستعاذة من الشر﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ وأما الشيطان فشرٌّ كله لذلك جاءت الآية بالاستعاذة منه .

* الوسواس : كلمة وسواس على صيغة (فعلال)، وهي صيغة تفيد التكرار لأنه لا ينفك عن الوسوسة ويسمى في اللغة (تكرار المقطع لتكرار الحَدَث) حيث تكرر فيها المقطع (وس) كما في كلمة كبكب (تكرار كب) وحصحص (تكرار حص) للدلالة على تكرار الحدث .

وصيغة (فعلال) تفيد المبالغة أيضاً إذن كلمة وسواس تفيد المبالغة والتكرار .[1]

* قدَّم الله تعالى الجِنَّة على الناس لأنهم هم أصل الوسواس إذ أنهم مختفون عنَّا ولا نراهم ، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف : ٢٧] ولكن الوسوسة بالشر ليست قاصرة على شياطين الجن فحسب بل إن هناك شياطين من الإنس يوسوسون بالشر كذلك يقول تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام : ١١٢]

ووسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكنَّا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة .

أما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين ! رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس ، لأنه الرفيق المأمون ! وحاشية الشر التي توسوس لكلِّ ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض مهلكاً للحرث والنسل ! والنَّمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنَّه الحق الصراح الذي لا مرية فيه ، وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخنَّاسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفيَّة التي يعرفونها أو يتحسسونها ، وهم شر من الجِنَّة وأخفى منهم دبيباً ! [2]

* استخدام " لفظ " وسواس " للدلالة عن نزغ شياطين الجن والإنس ، الذي هو في الأصل صوت الحَلي المحبب للناس ، دليل على أن الشيطان لا يملك حجة لإقناع الناس ولا قوة لقهرهم إنما فقط يدخل إليهم من باب الشهوات المحببة إليهم ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]

---

(١) الدكتور فاضل السامرائي : برنامج قول معروف " لمسات بيانية في نصوص من التنزيل" بتاريخ ١ / ٦ / ٢٠٠١ م

(٢) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٨ ص ١٣٥

كذلك جعل الوسوسة في الصدر الذي هو محل القلب الذي هو مستقر الاعتقاد والإيمان ، ومجمع الوجدان والمشاعر ، وهو متقلِّب : يحب ويكره، ويعمى ويبصر، يفرح ويحزن ، يطمئن ويخاف ، ويصح ويمرض ، ويَرِق ويغلظ ، يرحم ويقسو ... لذا يمكن أن يتأثر بوسوسة شياطين الجن والإنس .

والقلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

* توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات يعطي جرساً موسيقيّاً تطرب له الأذن، ويضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ، وينبه الذهن لإدراك المعاني .

***

openkandl.com

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي
٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة
٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي
٤- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة
٥- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو دار زهور المعرفة والبركة
٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " "
٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " " " " " " " "
٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " " " " " " " "
٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .
دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .
دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) "" "" "" "" "" "" "" ""
٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" "" "" "" "" ""
٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" "" "" "" "" "" ""
٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية "" "" "" "" "" "" "" ""

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ
زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . "" "" "" ""

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ زهور المعرفة والبركة

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " "" "" ""

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) "" "" "" ""

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) "" "" "" ""

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور المصريون" .

التليفون المحمول 01226406489 :

البريد الالكتروني : yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

obeikandi.com